٥ – الزنـــــدقة

في عهد المهدي العباسي

للأستاذ محمد خليفة التونسي

الشعوبية والمجوسية — المجوسية وأطوارها بالإجمال — زرادشت ومانى ومزدك — انتشار المذاهب المجوسية قبل الإسلام وبعده إلى عهد المهدي .

بينا فيما تقدم[1] بعض أسباب الشعوبية التي كانت تدفع الفرس إلى كره العرب والسعي إلى اطّراح حكمهم ودينهم ، وأشرنا إلى بعض مظاهر هذه الشعوبية ومنها كثرة انتقاضات الفرس على العرب طلباً للاستقلال ببلادهم ودينهم ونظمهم مما يدعونا إلى أن نسمي الحروب التي جرت بين الفريقين من جراء هذه الانتقاضات حروباً استقلالية ، لأن الاستقلال هو الهدف الذي كان يرمى إليه الفرس من جراء هذه الانتقاضات ، وأشرنا إلى بعض ما كان من سعي الفرس بطريق غير طريق القوة المباشر لكيد العرب وهدم سلطانهم السياسي والديني، ومن ذلك محافظتهم على كل ما هو فارسي يصلح للفخر على العرب به عند المفاخرة . ولم يكن همنا في ذلك كله أن نفصل الكلام في الشعوبية وأسبابها ونتائجها جميعاً بل الكشف عن العلاقة بين الشعوبية وبعض مظاهرها حتى لا تكون الزندقة التي نعتقد أنها أحد هذه المظاهر بدعة غريبة عن الشعوبية ، ولم نقل ما قلناه آنفاً من الكلام في مظاهرها إلا لبيان أن الزندقة ليست المظهر الوحيد لها بل هي أحد مظاهرها ، فكما حاول الفرس كيد العرب بكل الوسائل التي أشرنا إليها ، والتي حال ضيق المقام عن الإشارة المفصلة إليها قبل — كذلك حافظوا على دياناتهم القديمة (المجوسية) ولهذه المحافظة أسباب : منها أنها أرضى لنفوسهم من المحافظة على كثير من مفاخر فارس القديمة التي فاخروا بها العرب ، وأرضى لعقولهم لأن دياناتهم أقرب إليها من الإسلام ، فإن المجوسية قد نبتت في البيئة التي نبتوا فيها فهي منهم ولهم ، أما الإسلام فإنه بالرغم من أنه دين عام جاء للعرب والفرس وغيرهم — لم تستطع عقولهم أن تألفه كما ألفت المجوسية . ومن هذه الأسباب أن المجوسية كانت صلة قوية من الصلات التي تقفهم كتلة واحدة أمام السيل العربي المتدفق على بلادهم والذي قضى على استقلالهم وممالكهم ونظمهم ، وجاء بدين يحاول هدم عقائدهم . ومنها أن المجوسية سلاح خفي فالمحافظة عليها محافظة على سلاح أفتك بالإسلام والعرب وسلطانهم من كثير من الأسلحة التي جربوها فنجحوا حيناً وفشلوا أحياناً ، ولم يكن خافياً على دهاتهم ورؤسائهم أثر هذه الديانة من حيث هي صلة قوية بين الفرس ولا من حيث هي سلاح .

ولم يكن من الممكن أن تمحى هذه العقيدة من قلوب معتنقيها وعقولهم وهي منهم ولهم بمجرد إكراههم على تركها ، بل لم يكن ذلك ممكناً حتى لمن دخلوا في الإسلام مخلصين له لأن النفس البشرية بحكم تكوينها تأبى أن يمحىَ منها عقيدة محواً تاماً لتحل محلها أخرى حلولا تاماً كما هي عليه في صورتها الأولى ، بل المجرب والمشاهد والمستطاع أن تتقارب العقيدتان وتتداخلا على حساب كل منهما حتى تنسجما في النفس البشرية بعض الانسجام وهذا مع الإخلاص وعلى أفضل حل مستطاع. والأكثر ألا تتغير من العقيدة القديمة إلا العناوين فتبقى كما هي ، ولا يدخل في النفس من العقيدة الجديدة شيء بالرغم من التمسك بعناوينها في الظاهر. وإذن فكيف بمن دخلوا في الإسلام خوفاً أو طمعاً بل كيف بمن استطاعوا أن يؤدوا الجزية للفاتحين مع البقاء على دينهم ؟ ذلك لأن المجوس حين فتح فارس اعتبروا كأنهم أهل كتاب ، وإن لم يكونوا من الكتابيين: اليهود أصحاب التوراة والنصارى أصحاب الإنجيل — وهؤلاء الكتابيون هم الذين نص القرآن على أخذ الجزية منهم إذا أرادوا البقاء على دينهم ، ومع ذلك فقد سن القواد الذين فتحوا بلادهم سنة أهل الكتاب بهم حسب رأي الخليفة لأن كتابهم الذي سنذكره بعد قليل — وإن يكن غير منزل من السماء كما رأى المسلمون — يشبه الكتب السماوية ، ومن أجل ذلك فرضت الجزية على من شاء البقاء على مجوسيته واستطاع

(١) انظر ما كتبنا في الشعوبية بالرسالة : العددان : ٦٤٤ و ٦٤٥ بعنوان « الزندقة في عهد المهدي العباسي » .

دفعها أو أعفى منها لسبب من أسباب الإعفاء[1] فكانت هذه المعاملة من أسباب بقاء المجوسية يضاف إلى عوامل بقائها التي أشرنا إليها من قبل .

وقد بقيت مذاهب المجوسية التي سنتكلم فيها بعد قليل قائمة بعد الفتح الإسلامي لفارس زمناً طويلا ، فكانت بيوت النيران التي يعظمها المجوس تتقد فيها النيران ولها خدمها وسدنتها في فارس تحت الحكم العربي الإسلامي ، وحسبنا مثلا خالد بن برمك وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية وزعمائها والمشاركين في قيامها وقد استوزره الخليفة العباسي السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) بعد قتل أبي سلمة حفص الخلال أول وزير في الإسلام كما أشرنا إلى ذلك من قبل[2] ، وكان خالد هذا كما قال الخضري بك « من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار[3] ، وهو معبد للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدنة له » (محاضراته في الدولة العباسية ص ١١١) .

وكان ذلك في أوائل القرن الثاني الهجري[4] بل لقد ظلت بيوت النيران قائمة في غير بلاد الفرس عند موت خالد بن برمك

(١) نهاية الأرب للنويرى ج ٨ ص ٢٣٨ (الطبعة الأولى لدار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٣١) وكتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص ٣٤٦ (طبعة الأستاذ محمد بدر بمطبعة المعارف سنة ١٩١٠) وانظر أيضاً كتب الفقه الاسلامي عند كلامها في الجزية وكتب التاريخ المبسوطة عند كلامها في فتح فارس في عهد عمر ، وكتب التفسير عند كلامها في شرح الآية : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ويظهر أن الخلفاء والسلاطين المسلمين كانوا يرون وجوب معاملة المجوس على هذا النحو حتى القرن الثامن الهجرى وربما بعده بقليل ما ذكره النويرى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ عند كلامه على ما يلزم مباشر الجوالى وهو الصيرفى الموكل بجمع الجزية من أصحابها (نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٤٢) .

(٢) « الزندقة في عهد المهدى العباسى » العدد ٦٣٧ من الرسالة .

(٣) هو بيت من بيوت النار بناه الفرس بمدينة بلخ عند نهر جيحون على مثال البيت الحرام بمكة وبيت المقدس بالشام ، وقد فصل القول فيه في كتاب معجم البلدان لياقوت (حرف النون) ومروج الذهب (ج ٤ ص ٤٧ — ٤٩ طبع باريس) وكتاب البلدان الهمدانى (ص ١٥٧ ، ٣٢٢ — ٣٢٤) .

(٤) الدولة العباسية قيامها وسقوطها . للأستاذ حسن خليفة ص ٦٧ (الطبعة الأولى)

سنة ١٦٣ هـ[1] في خلافة المهدى التي نتكلم في الزندقة على عهده ، فقد كان على خليج القسطنطينية من بلاد الدولة الرومانية الشرقية يومئذ بيت نار كان قد بناه سابور الجنود بن أردشير حين نزل على الخليج وحاصر القسطنطينية في إحدى حروبه مع الروم ، وقد اشترط عليهم بقاءه فبقى إلى خلافة المهدى[2] (١٥٨—١٦٩ هـ) الذى نتحدث بموضوع الزندقة في عهده . بل ما زالت عبادة النيران في الهند حتى القرن الثامن الهجرى وكان عبادها يسمون « الإكنواطرية[3] » ، بل ما تزال في بمباى بالهند طائفة من المجوس يتمسكون بمجوسيتهم ونيرانهم حتى اليوم ويسمون « الفرسيين[4] » .

بل لقد تأدى بنا البحث إلى مكان لامناص لنا فيه من السؤال عن المجوسية وعما إذا كان لها من أثر في تعاليم الزنادقة الذين ظهروا في عهد المهدى .

ليس من همنا هنا أن نتبسط في شرح المجوسية بل سنجمل القول فيها إجمالا ، وسنقتصر في هذا الإجمال على التعاليم التي يمكن أن يكون لها بموضوعنا صلة . ولنبادر فننبه إلى أننا عاجزون عن فهم مدلول المجوسية بغير فهم أطوارها وفهم الرجال الذين تطورت على أيديهم ، وإلا فإن معنى المجوسية يظل محوطاً بكثير من الغموض والاضطراب ، فالحق أن المجوسية إنما هي أطوارها ، وهناك تعاليم مشتركة بين كل هذه الأطوار ، ولكن هناك أيضاً تعاليم تختص بها بعض الأطوار دون بعض ، فإذا أطلقنا المجوسية على التعاليم

(١) محاضرات الخضرى بك ص ١١١ .

(٢) كتاب نهاية الأرب النويرى ج ١ ص ١٠٢ وما يليها ، وكتاب مروج الذهب للمسعودى (طبع باريس) ج ٤ ص ٧٢ وما يليها

(٣) المصدران السابقان كلاهما ، وجاء في هامش الصفحة ١٠٢ من نهاية الأرب ج ١ أن المترجم الألماني لكتاب الملل والنحل أفاد أن كلمة « الاكنواطرية » مأخوذة من « أجنيهترا » وهي النار المقدسة » أى النار التي تتأجج إكراماً للإله « أجنى »

(٤) تاريخ الفلسفة للأستاذين محمد على مصطفى والمرحوم أحمد عبده خير الدين ص ٣٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٣ م) وهذه التسمية تشير إلى أصلهم وأصل مذهبهم الفارسى . وكفى بها دليلا على الصلة بينها وبين العقائد الفارسية وفارس موطنها الأول التى خرجت منه والصلة بين فارس والهند قوية منذ أقدم العصور حتى الآن ، هي أشهر من أن تحتاج إلى دليل ، وكذلك الصلة بين معتقدات الهنود والفرس ، فقد أخذ كل فريق عن الآخر وأثر فيه وتأثر به معتقدا ولغة وصناعة .

المشتركة دون غيرها أخرجنا عنها ما هو منها ، وإذا أطلقناها على كل التعاليم عامة وخاصة أدخلنا فيها ماليس منها أو وجدناها أمامنا مضطربة متناقضة فى جملتها وتفصيلاتها .

كما أبادر فأنبه إلى أنى غير مستريح إلى اعتبار المجوسية على اختلاف أطوارها ديانة من الديانات ، لا لأنها غير سماوية ولا لأنها متناقضة ، ولا لأنى مسلم مضطر إلى عدم الاعتراف بها ، فقد أعترف بها كدين السحابة الأولون وعاملوا أهلها كما عومل أصحاب الدينين السماويين اليهودية والمسيحية ، ولكنى لا أستريح إلى اعتبارها ديانة لأن الديانات تكاد تكون خصيصة سامية ، فموسى والمسيح ومحمد — عليهم السلام — الذين أرسلهم الله بأعظم الديانات السماوية كانوا ساميين ، وهناك سبب آخر هو أن المجوسية على اختلاف أطوارها لم تستوف معنى الديانة الكامل كما نفهم من هذه الكلمة عند إطلاقها . وأقرب إلى الصواب فى نظرى أن ندعوها فلسفة أو نزعة عقلية أو نزعة فنية ، فهى لا تهتم كالديانات بحل المشاكل الغيبية ، ولا تتطلع إلى ماوراء الطبيعة وفوق العقول بل إنها تحصر اهتمامها حصراً فى العالم الذى أمامها وتحاول أن تتعرفه من طريق الحواس ، كى تخلص من ذلك إلى الامتزاج به والانغماس فيه ، وهذه هى النزعة التى تسلطت على العقل الآرى فى كل العصور .

من طريف ما أذكر هنا أنى قرأت فى كتاب (فى أصول الأدب) للزيات أن فولتير فى روايته (زبير) مثل عقد زواج بين رجل وامرأة على الطريقة الإسلامية فوصف أنه كان بأحد المساجد ، وقد تسرب اليأس إلى ذهن المؤلف المسيحى من أن العادة فى الزواج عند المسيحيين أن يعقد فى الكنائس فقاس المساجد عليها فى عقود الزواج بين المسلمين[1] وشبيه بهذا المؤلف وما تصور من ذهب من العرب إلى اعتبار المجوسية ديانة كالإسلام واليهودية والنصرانية قبله ، ومن ثم وقعت أخطاء كثيرة فى فهمها .

تنتمى الأمة الفارسية إلى الجنس الآرى ، وقد سكنت إيران وما حولها قبل الإسلام بقرون كثيرة ، وبالرغم من أنا لا نرى كل ما ارتآه الفيلسوف الفرنسى رينان ثمن الفروق الكثيرة بين العقل السامى والعقل الآرى — لا نستطيع أن ننكر أن ثمة فروقاً بينهما . يرى الفيلسوف الهندى رابندرانات تاجور فى كتابه « السدهانا » عند كلامه فى أصول الفلسفة البرهمية القديمة أن الآريين القدماء عند ماتزلوا الهند وجدوها مكشوفة بتاباتها وأنهارها وغدرانها ، فكان من ذلك أن وجدوا أنفسهم جزءاً منها فحاولوا الامتزاج بها والاندماج فيها ، وكان لذلك أثره فى فلسفتهم وعقولهم وخيالهم وحضارتهم ، وكذلك يقال فى الآريين الذين نزلوا فى إيران والذين يسمون الفرس أو الإيرانيين ، فقد أحبوا الطبيعة ، وعبدوا قواها ، وحاولوا أن يندمجوا فيها بفهمها على اعتبار أنهم جزء منها وأنهم مثلها ، والاتصال بها من طريق الحواس ؛ ومن ثم جاءت فلسفتهم حية لاتؤمن بغير الحواس ، وتحرص على التثبت أكثر مما تحرص على الاعتقاد ، وتحاول أن تقف منها على أنها جزء منها لا أنها شىء خارج عنها يجب أن تخضع له وتلقى قيادها إليه . ولأمر ما لم تنجح المذاهب المجوسية المختلفة فى الانتشار بين العرب الساميين بالرغم مما كان للفرس من سلطان سياسى وأدبى ومالى عليهم ، وبالرغم من الاختلاط بينهم قروناً عدة قبل الإسلام ولا سيما فى العراق واليمن وبالرغم من أن العرب ظلوا يدينون بديانات وثنية أثناء هذا الاختلاط حتى جاء الإسلام .

إن كل ما ورد من مذاهب المجوسية ينبىء أول ما ينبىء عن أن الفرس الآريين عشقوا الطبيعة عشقاً قوياً ، وأن هذا العشق القوى هو الذى دفعهم إلى تصورها على الهيئة التى عليها تصوروها ، والتعبير عنها على النمط الذى به عبروا عنها ، وكان أعظم ما لفت أنظارهم الشمس ، فقد رأوها أعظم الأشياء ، ووجدوا لها من المنافع ما لم يجدوا لغيرها ، فقدسوها وأسندوا إليها كثيراً من الصفات الإلهية ، ومن أجلها عشقوا النور وعظموه وعبدوه وأسندوا إليه كل خير كما أسندوا إلى ضده الظلام كل شر ، أو هم رمزوا بالنور إلى كل خير وبالظلام إلى كل شر ، ونحن نعلم أن الرموز تنقلب بتطاول الزمن رسوماً وتقاليد جافة وتمحى منها صبغتها الفلسفية والفنية ، وتقدس لذاتها ولو لم يفهم مدلولها ، بل تقدس لذاتها ولو لم تحقق مدلولها المقصود فى البدء ، ويكون لها بعد جمودها الإجلال وحدها دون المعانى المستترة وراءها ، وهذا ما جرى ويجرى فى كل زمن على الفلسفيات والديانات والفنون ونحوها ولا سيما على أيدى عوامها ، وكل إنسان يرى حتى فى الحياة اليومية أمثلة لهذه الإنتكاسات العقلية بين العامة بل الخاصة فى كل صقع من الأرض .

(١) فى أصول الأدب ص ١٧٢ .

ويظهر لي أن هذه العقائد والنزعات المجوسية أقدم عند الفرس من تاريخهم المعروف ، فهناك فرقة من المجوس تسمى الكيومرتية نسبة إلى كيومرت(١) ترى أن للعالم إلها قديما خالقا أضافوه إلى النور وسموه «يزدان(٢)» وهو يقارب الله عند غيرهم ، وإلها مخلوقا — خلقه يزدان — أضافوه إلى الظلمة وسموه «أهرمن(٣)» وهو يقارب إبليس عند غيرهم ، وقد نسبوا إلى الأول الحياة والحكمة وكل خير وبركة في العالم ، كما نسبوا إلى الثاني الموت والفساد والجهل وكل شر وفتنة وضرر وإضرار(٤) .

ولتقديس الفرس النور بنوا بيوت النيران وعبدوها حتى قبل ظهور زرادشت أول حكيم يعيه التاريخ من حكمائهم ، وستتحدث به وبمذاهبه إجمالا إن شاء الله فيما يلي ، ونحن حقيقون قبل الكلام في مذهبه أن نقف هنا لنعلق على العرض السابق لما كان قبل زرادشت بما يمكن أن نفهم منه ، وينبغي ألا نقف عند هذه العناوين التي تبدو لنا في الآراء المجوسية قبله بل تنطلق إلى ما وراءها ، وإلا كنا كالعوام وأشباههم ممن يقفون عند الظواهر دون التعمق إلى البواطن .

ينبغي أن نفهم من عرض ما قدمنا أن الفرس منذ القدم وحين نزعوا هذا النزع كانوا أولا عشاقا للطبيعة ، وكانوا يؤمنون بتضاد الأشياء وتعاقبها ، ورمزوا لذلك بأشد ضدين بروزا وتعاقبا في كل ما رأوا وهما النور والظلمة ، فهذان الضدان أبرز من كل ضدين في الكون ، وتعاقبهما أوضح من تعاقب كل ضدين ، فهم لم يحاولوا التهجم على عالم الغيب المستور الذي لا تنزع عقولهم — وهم عشاق الطبيعة ومظاهرها المحسوسة إلى الضرب في آفاقه الغامضة ، والاهتداء إلى مضامينه المستورة ، ومن أجل ذلك نفضل ألا نسمي آثار المجوسية ديانة بل فلسفة لأنها نزعة عقلية بل نزعة فنية شعرية تعبر عن عشق مفرط للطبيعة واستجابة لآثارها وإعجاب بها وطرب لها عن فهم حينا وعن غير فهم أحيانا ، وهذا هو الأليق بالعقلية الفارسية الآرية .

محمد خليفة التونسي

---

(١) كيومرت أوجيومرت هو عند الفرس مبدأ النسل كآدم أبي البشر عند غيرهم ، وهو أول ملوكهم فيما زعموا ، ويسندون إليه كثيرا من الوصايا والمظالم والمناقب ، وفي مروج الذهب للمسعودي كلام طويل في كيومرت وما ينسبه إليه الفرس من أساطير ، وقد أورده في فصل «ذكر ملوك الفرس وجمل من أخبارهم» انظر (مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٦ «طبع باريس») و (هذا الكتاب أيضا على هامش نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ «طبع المطبعة الأزهرية المصرية — الطبعة الأولى سنة ١٣٠٢ هـ») فالفرس ينسبون عقائدهم إلى مبدأ البشر إشارة إلى قدمها .

(٢) يزدان يسمى في بعض الكتب مزدا أو أهورامزدا أو هرمز وهو إله الخير أو إله النور ، ويقول القلقشندي إن معنى يزدان النور .

(٣) أهرمن يرسم في بعض الكتب أهرمان وهو إله الشر وإله الظلام ، ويقول القلقشندي إن معنى أهرمن الظلمة .

(٤) راجع كل ذلك في كتاب «صبح الأعشى للقلقشندي» جـ ١٣ ص ٢٩٢ ، وانظر في اعتقادهم بالنور والظلمة وما ينسبون إليهما ما جاء في المجوسية والثنوية في كتاب «الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي ص ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ٢٠٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

انتظـــروا

عدد «الرســالة» الهجرى الممتــاز

في يوم الأحد ٦ يناير سنة ١٩٤٦

وهو حافل كعادته بأروع ما يكتب في موضوعه لصفوة من أقطاب البيان في مصر والعالم العربي

نسخه محدودة لقلة الورق وثمن العدد ثلاثون مليما